بين اللغويين العرب واللغويين الغرب حول مفهوم اللغة والكلام

نجم الدين الحاج عبد الصفا[3]

Abstrak

Makalah ini memuat pendapat pakar linguistik, baik dari pakar linguistik Arab maupun dari pakar linguistik barat mengenai pengertian *al-lughah* dan *al-kalam* dan hubungan antara kedua istilah linguistik ini. Namun makalah ini hanya memilih masing-masing tiga tokoh dari linguistik Arab yaitu Ibn Jinny, Ibrahim Anis dan Tamam Hassan. Sedangkan ketiga tokoh dari lingistik barat yaitu De Sausure, Lewandoski dan Martinet. Dari hasil kajian menunjukkan kesamaan pandangan mereka mengenai kedua hal tersebut. Namun pakar linguistik Arab lebih banyak memuasatkan kajiannya terhadap bahasa Arab dengan tujuan untuk mengkaji al-Qur'an dan bahasanya.

مما لا شك فيه أن اللغة من أجل النعم التي من الله بها على بني البشر ، فيها يتميز الإنسان على سائر ما عداه من المخلوقات . وقد لاحظ ذلك الفلاسفة والعلماء قديما ، فقالوا الإنسان حيوان ناطق ، يعنون بذلك أن النطق هو الميزة الكبرى التي امتاز بها الإنسان . وقد لفتت هذه المعجزة الكبرى (اللغة) إليها أنظار المفكرين ، فتساءلوا فى البداية عن العلاقة بين الأسماء ومسمياتها ، كأن يتساءل المرء مثلا : لماذا سمي الرجل رجلا ؟ والأسد أسدا ؟ . . . . وهكذا .

ثم تطورالفكرالبشري ، فحاول الوصول إلى معرفة كنه العلاقة بين الأشياء أو المسميات من خلال معرفة العلاقة بين الأسماء التي تطلق عليها . وهنا ظهرت أولى الدراسات المتعلقة باشتقاق الكلمات ، وظهرت المداراس اللغوية التي يقول بعضها

[3] *Dosen Jurusan Sastra Asia Barat Fakultas Sastra Unhas*

بالقياس ، وبعضها بالشذوذ ، ثم تطورالبحث في اللغة بعد ذلك من مثل هذه الأمور الجزئية إلى البحث في ظاهرة اللغة ككل لا تنفصل أجزاؤه .

وهنا كانت المحاولات المختلفة للإجابة عن العديد من التساؤلات المتعلقة بماهية اللغة ، وهل هي ظاهرة فردية أو اجتماعية ؟ وهل هي والكلام أمر واحد ؟ أو أمران مختلفان تربطهما علاقة وثيقة ؟

وسنحاول فيما يلي إلقاء بعض الضوء على هذه التساؤلات المختلفة ، علّنا نحصل على تصور واضح لطبيعة اللغة .

ما هي اللغة ؟

اللغة مع وضوح أمرها وجريانها على كل لسان ، وجد الدارسون في تعريفها تعريفا دقيقا بعض المشقة والعنت ، وانقسموا بهذا الصدد إلى فرق وطوائف . وعلى الرغم من ذلك فإن مصطلح " اللغة " قد استخدم في التراث استخدامات عديدة ،منها :

أ – أن تستعمل مفردة بمعنى " اللهجة " ، مثال ذلك قول ابن جنى : باب اختلاف اللغات وكلها حجة"(ابن جني 10/2) .

ب– أن تستعمل مفردة بمعنى اللغة الإنسانية بوجه عام ، ومن ذلك قول ابن جني : باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح ؟ (ابن جني 4/1).

ج – أن تستخدم مفردة بمنى الطريقة الخاصة في نطق كلمة ما ، مثال ذلك قولهم : تقع فى الكلمة الواحدة لغتان ، كقولهم : الصِّرام ، والصَّرام ، والحَصاد ، والحِصاد . وتقع فى الكلمة ثلاث لغات ، نحو : الزُّجاج ، والزَّجاج ، والزِّجاج (مجمع اللغة 389،513/1 مادتي " زجج " و " صرم ") .

د – أن تستعمل مضافة إلى أمة أو إلى جماعة تنتمي إلى هذه الأمة ، مثال الأول : باب القول على أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها (البركاوي 1986: 10) ، وهي هنا تعني ما يقابل اللغة الفارسية أو الإنجليزية . ومثال الثاني قولهم : لغة الحجازيين أو لغة التميميين (ابن جني 10/2)، وهي هنا بمعنى اللهجة .

أما اليوم فقد توسع في هذا الاستعمال توسعا عظيما بحيث أصبحنا نجد تعبيرات من نحو : لغة الشعر أو لغة النثر، في معنى أسلوب كل منهما ، أو من نحو : هذا اللفظ لا يستخدم إلا في لغة الجزارين ، في معنى اللهجة الإجتماعية الخاصة بهذه الطائفة ، تشيع على كل لسان . وقد تستخدم في معنى الكلام ، كأن يقال مثلا : كانت لغة الرئيس في خطابه أمس مفهومة للجميع .

والذي يهمنا الآن أن نعرف على وجه التحديد أي هذه المعاني هو المقصود بـ " اللغة " عندما نتناولها كموضوع للدرس أهو اللغة الإنسانية ، أم اللغة المعينة كالعربية مثلا ؟ أم هو اللهجة ؟ أم خلاف ذلك ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ليست من السهولة بمكان كما قد يتصور للوهلة الأولى ، إذ أن الباحثين عندما تعرضوا لتحديد مصطلح اللغة أو ما يقابله فى اللغات الأجنبية قد تأثر كل منهم إلى حد كبير بآرائه الخاصة واتجاهاته التي تختلف قليلا أو كثيرا مع غيره من الباحثين . ومن هنا وجدنا لكل فريق من العلماء نظرة إلى اللغة تختلف عن نظرة الفريق الآخر، فكان للمناطقة مذهب في ذلك تختلف عن مذهب علماء النفس ، كما كان لعلماء الإجتماع نظرة تختلف عنهما جميعا .

أما علماء اللغة فقد نظروا إلى هذا الموضوع من زاوية قد تتفق أو تختلف مع هذا الفريق أو ذاك . وسوف نتناول هنا بإيجاز تحديد مفهوم اللغويين لظاهرة اللغة .

مفهوم اللغة عند اللغويين العرب

لعل أبا الفتح ابن جنى كان أسبق اللغويين العرب في تحديد المراد بمصطلح " اللغة " عند ما ذكرفي كتابه " الخصائص 33/1: أن حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . ويبدو أن هذا التعريف قد لاقى القول من اللغويين العرب بوجه عام ، فتناقلوه فيما بينهم . ويبدو أن ابن جنى هنا يقصد " اللغة الإنسانية " لا عن لغة معينة ، بدليل قوله : باب القول على أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح ؟ .

ويتضمن هذا التعريف الذي ساقه أبو الفتح للغة الإنسانية عناصر ضرورية لفهم طبيعة اللغة من وجهة نظر المحدثين ، وتتمثل هذه العناصر فيما يلي :

أولا : أن المظهرالمادي للغة الإنسانية هو الصوت . وهذا يؤكد " الطبيعة الصوتية للغة " كما يقول بعض الباحثين .

وليست هذه الأصوات التي تأتلف منها الكلمات والجمل إلا رموزا أحلها الإنسان بموهبته الخلاقة محل الخواطروالأفكار ، وذلك لأن الرمزية هي العمل الأساسي فى الفكر الإنساني .

ثانيا : أن اللغة الإنسانية ظاهرة إجتماعية ، أي لا يتصور وجودها إلا في مجتمع . وهذا هو ما نفهمه من قوله " كل قوم " ، إذ القوم تعني " الجماعة " (ابن منظور 3786/5 مادة " قوم ") .

وفي هذا يقول بعض العلماء المحدثين مؤكدا على أهمية المجتمع بالنسبة للغة . وهو – أي المجتمع – للغة كالتربة بالنسبة للزهرة أو الحبة . فالحبة تكمن فيها جرثومة الحياة ، ولكنها لا تنبت إلا فى التربة ، وكذلك اللغة فى الإنسان ، إذ يولد المرء مستعدا للنطق والكلام ، ولديه أجهزته وأعضاؤه ، ولكنه وحده منعزلا عن الناس لا ينطق ولا يتكلم ولا تنشأ له لغة (أنيس 1970: 29) .

ثالثا : أن للغة الإنسانية وظيفة محددة ، وليست كسائر الأصوات الطبيعية التي تصدر عن شتى ألوان المخلوقات الأخرى . وقد أوجز ابن جنى وظيفة اللغة في قوله : التعبير عن أغراض الجماعة (ابن جنى 33/1) .

والتعبيرعن الغرض لدى أفراد الجماعة قد يكون تبادلا للمعلومات أو الأفكار من شخص لآخر ، وقد يكون تعبيرا عن عاطفة أو انفعال أو غير ذلك .

اللغة عند اللغويين المحدثين العرب

لعل تعريف الدكتور إبراهيم أنيس للغة يمثل وجهة نظر المحدثين من العرب فيما يتعلق بالمعنى الإصطلاحي ، إذ ذكر في كتابه " اللغة بين القومية والعالمية "

(1970: 11) : أن اللغة هي نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها الناس فى الإتصال بعضهم ببعض .

وبناء على هذا سيتناول الباحث عناصرهذا التعريف التي رأى أنها ضرورية لفهم طبيعة اللغة ، وهي :

أولا : نظامية اللغة

ويعني هذا أن لكل لغة نظاما تخضع له وقواعد مقررة ، فليست فوضى ، وليست تتألف من أشياء لا رابط بينها ، فلها نظام معين في توزيع أصواتها ونماذج محددة في بناء كلماتها وجملها . وقد أشار ابن جني في كتابه " الخصائص " (26/1) إلى أن الكلام ليس استرسالا ولا ترجيما .

ثانيا : عرفية اللغة

وهذا يعني أن اللغة ظاهرة يحكمها العرف الإجتماعي لا المنطق العقلي ، ولذلك نجد أحيانا كلمة واحدة يختلف معناها المراد في مناطق مختلفة أو في جماعات متعددة . وطبعا هذا يرجع إلى عرفية المستخدمين بهذه الكلمة لا إلى عقولهم .

ثالثا : صوتية اللغة

ويعني هذا العنصر أن الأصوات من أوضح مظاهر اللغة ، لأنها حين تتألف تتكون منها الكلمات ثم الجمل والعبارات .

رابعا : إجتماعية اللغة

ويعني ذلك أن المجتمع الإنساني هو المقوم الرابع . فاللغة لا يمكن أن تنشأ وترعرع إلا في مجتمع ، وذكر الدكتور إبراهيم أنيس (1970: 33) أن المرأ يتعلم الكلام لا عن طريق الغريزة أو الاحساس الداخلي كما هو الشأن في عمليات التنفس أو الأكل والشرب أو المشي ونحو ذلك ، بل يتعلمه من المجتمع الذي نشأ فيه .

مفهوم اللغة عند اللغويين الغربيين

إختلفت آراء الباحثين من اللغويين فى الغرب حول تعريف اللغة ( ) Language اختلافا كثيرا نظرا لاختلاف مستويات البحث أو اتجاهه ، وربما لارتباط الباحث بنظرية أو مفهوم محدد .

وقد ذكرلواندوسكى (Lewandowski) ما ينيف على عشرين تعريفا للغة (البركاوي 1986: 18و20) ، ولكن اقتصرنا هنا على ذكر ثلاثة منها فقط كما يلي :

1- اللغة عند لواندوسكى هي ظاهرة إنسانية واجتماعية في نفس الوقت ، وهي نظام من الرموز وأداة للفكر والتعامل ، والوسيلة للاتصال بين بني البشر .

2- اللغة عند مارتينيه (Martinet) هي أداة اتصال يستطيع بها الإنسان في جماعة بشرية أن يحلل ويبرز تجاربه في وحدات كلامية ذات مظهر صوتي ومحتوى دلالي .

3- اللغة عند دى سوسير(De Sausure) هي نظام اصطلاحي جماعي من الرموز والقواعد يخضع له الكلام .

وهي على هذا النحو أشبه بقاموس للكلمات أو قائمة للقواعد لا وجود لها إلا فى

الذهن ، ولا تبرز فى الواقع العملي إلا من خلال الكلام . وهي تشكل الجزء الجوهري أو الرئيسي للغة الانسانية أي أنه إذا كانت اللغة الإنسانية في عمومها تعني القدرة البشرية على اصطناع لغة ما واستخدامها . فإن مظاهر هذه القدرة تتبلور في شكل

وحدات عديدة تتخذ كل منها نظاما معينا ، وهذه الوحدات هي اللغات المختلفة من نحو العربية والإنجليزية والفرنسية وغيرها .

إن الدور الذي قام به هذا العالم السويسري باعتباره رئدا للدراسات اللغوية الحديثة يضفي على تعريفه للغة أهمية خاصة . وليس من المبالغة القول بأن تصور دي سوسيرللغة كانت نقطة الإنطلاق للكثير من الباحثين اللغويين ، بل وغير اللغويين من دارسي العلوم الانسانية ، إذ كانت محاضراته عن اللغة فاتحة عهد جديد في مضمار العلوم اللسانية بصفة خاصة ، والعلوم الانسانية بصفة عامة .

بين اللغة والكلام

بناء على ما ذكره De Sausure اتضح لنا أن هناك علاقة وثيقة بين " اللغة " بمعنى النظام ، و " الكلام " الذي هو تطبيق واقعي لهذا النظام ، لأن وجود كل منها مرتبط بوجود الآخر، يقول دي سوسير(البركاوي 1986: 22) إن كلا من اللغة والكلام مرتبط بالآخرتمام الإرتباط . فاللغة مطلوبة حتى يفهم الكلام ويحقق غرضه ، ولكن الكلام أيضا ضروري حتى تتكون اللغة ، ولا يمكن أن يتحقق تجديد في اللغة كنظام إلا إذا كان هذا التجديد قد مورس قبلا فى الكلام . ومع ذلك فإن فروقا جوهرية بينهما يمكن إرجاعها إلى ما يلي :

أ — اللغة ذات مظهر لغوي ، أما الكلام فأحداث فردية .

ب — اللغة أمر جوهري ثابت ، أما الكلام فأمر ثانوي متغير .

لقد شبه دي سوسير اللغة بمقطوعة موسيقية أوسيمفونية ، أما الكلام فهو بمثابة عزف هذه المقطوعة أو السيمفونية وإبرازها للعالم المجسوس ، كما شبه اللغة والكلام

كذلك بلعبة الشطرنج ، فنظام اللعبة الذي يتعارف عليه اللاعبون هو بمثابة اللغة ، وتحريك القطع وممارسة اللعبة بمثابة الكلام .

ولعل سائلا يسأل: هل أدرك الباحثون العرب أن هناك فرقا بين اللغة والكلام ؟ وقبل الإجابة على ذلك يتحتم علينا أن نعرض تصورهم للكلام ، كما عرضنا من قبل تصورهم للغة . ولعل تعريف ابن جنى للكلام في صدرخصائصه يبين هذا التصور ويوضحه خير توضيح ، إذ ذكرفى الخصائص (17/1) فيقول : إن الكلام هو لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه . ونأخذ من هذا التعريف :

1- أن الكلام هو الألفاظ المنطوقة بالفعل .

2- أنه لابد من شرط الإفادة فى الكلام ، ولا يتجقق ذلك إلا فى الجمل التامة ، وهذا يعني أن وحدة الكلام الأساسية هي الجملة .

وهذا التصوريتفق مع المحدثين إتفاقا تاما ، وقد سبق القول بأن الكلام عند De Sausure هوما ينطق به الناس فعلا وفقا لنظام اللغة . فإذا أضفنا إلى تعريف ابن جنى السابق بملاحظته الذكية من أن العربي كان يتأمل مواقع الكلام ، وأنه – أي الكلام – لم يكن استرسالا ولا ترجيما ، لأدركنا معرفة هذا العالم العربي بأن الكلام إنما هو تطبيق عملي لنظام اللغة ، وليس نظام سوى التعير الحديث عما يسميه ابن جنى بمواقع اللغة .

وبناء على هذا فإن الكلام لا يفهم إلا إذا كان على شرط اللغة ، أو بعبارة حديثة : متفقا مع نظام اللغة . وهذا يعني أن اللغة شئ ، وأن الكلام شئ آخر، إذ هو بمثابة التطبيق العملي لها . وقد تبين على ضوء النصوص الواردة بأن القدماء من

علماء العربية قد أدركوا أن هناك فرقا بين اللغة والكلام ، وأنهم قد سبقوا المحدثين إلى ملاحظة أن اللغة نظام إجتماعي ، وأن الكلام تطبيق عملي لذلك .

أما رأي المحدثين من علماء العربية فيصوره لنا الدكتور تمام حسان في كتابه " العربية معناها ومبناها "(1979: 32) حيث ذكرمبينا طبيعة كل من الكلام واللغة فقال :

- إن الكلام عمل ، واللغة حدود هذا العمل .
- والكلام سلوك ، واللغة معايير هذا سلوك .
- والكلام نشاط ، واللغة قواعد هذا النشاط .
- والكلام حركة ، واللغة نظام هذه الحركة .
- والكلام يحس بالسمع نطقا ، والبصر كتابة ، واللغة تفهم بالتأمل فى الكلام .
- فالذي نقوله أو نكتبه كلام ، والذي نقوله بحسبه ، ونكتب بحسبه هو اللغة .
- فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب ، واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم وغيرها .
- والكلام قد يحدث أن يكون عملا فرديا ، ولكن اللغة لا تكون إلا إجتماعية .

الخلاصة

بعد العرض السريع والبحث المتواضع عن اللغة والكلام ، نلخص ما قدمناه فى النقاط الآتية :

1- أن علماء اللغة سواء كانواعربا أوغيرعرب ، قدامى أو محدثين ، قد اتفقوا في مفهومهم للغة ، وإن كانوا قد اختلفوا في عباراتهم وأساليبهم فى التعريف عن اللغة .

2- وفي حلال هذا البحث اتضح لنا الملاحظة الذكية لعلماء اللغة العرب القدامى لقدرتهم العقلية فى التعرف عن ماهية اللغة ، رغم أن وسائل البحث لديهم لا تصل إلى ما وصل إليها علماء اللغة المحدثين من وسائل حديثة وتكنولوجية متطورة .

3- أن كلا من علماء اللغة ، قدامى ومحدثين ، قد أجمعوا على أن اللغة تختلف عن الكلام حيث أن اللغة نظام ، والكلام تطبيق عملي لهذا النظام .

4- ويتميز علماء اللغة العرب القدامى بتركيز بحوثهم اللغوية ، واهتمامهم باللغة العربية دون التوسع والتطرق إلى اللغات الأخرى وإن كانوا قد أدركوا ذلك ، إلا أنهم اقتصروا فى اللغة العربية لخدمة الدين الإسلامي ولغة القرآن الكريم .

والله ولي التوفيق .

المراجع

- أنيس ، إبراهيم . 1970 . اللغة بين القومية والعالمية . القاهرة : دارالمعارف .

- -------- ، 1978. أسرار اللغة . الطبعة السادسة . القاهرة : مكتبة الأنجلوالمصرية .

- أنيس ، إبراهيم وزملاؤه . 1972. المعجم الوسيط . الطبعة الثانية . القاهرة : مجمع اللغة العربية .

- البركاوي ، عبد الفتاح . 1986. مدخل إلى علم اللغة الحديث . القاهرة : مطبعة السعادة .

- ابن جنى ، أبوالفتح عثمان . بدون تاريخ . الخصائص . تحقيق مُحَمَّد علي النجار. الجزء الأول . بيروت : دار الهدى .

- -------- ، أبوالفتح عثمان . بدون تاريخ . الخصائص . تحقيق مُحَمَّد علي النجار. الجزء الثاني . بيروت : دار الهدى .

- -------- ، أبوالفتح عثمان . بدون تاريخ . الخصائص . تحقيق مُحَمَّد علي النجار. الجزء الثالث . بيروت : دار الهدى .

- حسان ، تمام . 1979. اللغة العربية معناها ومبناها . الطبعة الثانية . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- ابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم الأنصاري . بدزن تاريخ . لسان العرب. القاهرة : دار المعارف .

- وافي ، على عبد الواحد . 1962. علم اللغة . الطبعة الخامسة . القاهرة : مكتبة نهضة مصر.